الأديبة الإسلامية وقضايا الأمة
سهيلة زين العابدين حماد
- نموذجاً -

قضية: الفكر العربي تحت مجهر التصور الإسلامي

- الالتزام الأدبي -

د. رجاء محمد عودة *

نبذة عن حياة الكاتبة:

وصف المفكر الإسلامي الشيخ محمد قطب جهدها النقدي بأنه ممتاز. وقال عنها الشيخ الأديب أحمد عبد الغفور عطار: بأنه يفضلها على عباقرة الأدب، والفكر الحديث وأساطينه في فهمها لحقيقة شرعة الإسلام ومنهاجه.

فمن هي هذه الكاتبة؟!.

إنها المفكرة والكاتبة السعودية (سهيلة زين العابدين حماد) ابنة المدينة المنورة، حيث ولدت ونشأت، وتلقت تعليمها الابتدائي والثانوي، والجامعي، وحصلت على شهادة البكالوريوس في التاريخ من جامعة الملك سعود (الرياض سابقاً).

نشأت في بيت علم ودين وفقه، إذ كان والدها الشيخ (زين العابدين محمد حماد) الذي ينتهي نسبه إلى عبد الرحمن بن أبي بكر رضي الله عنهما، من علماء المدينة المنورة، حفظ القرآن وهو في التاسعة من عمره، وعمل إماماً وخطيباً بالمسجد النبوي الشريف، ثم اتجه للدعوة إلى الله، فقضى ثلاثين عاماً في بلاد الهند والبنغال في نشر الإسلام، وشرح مبادئه، وأسلم على يديه عدد كبير.

وعلى خطاه سارت ابنته سهيلة - وكما وصفها النقاد - نموذجاً حياً للالتزام بالمنهج الإسلامي في الأدب وفي الفكر. الإنسان في نظرها كلٌ لا يتجزأ، فلا يسعه

(*) كاتبة سعودية، أستاذة في قسم اللغة العربية وآدابها - جامعة الملك سعود - الرياض.

أن يكون ملتزماً في منحى من مناحي الحياة، ويتخلى عن هذا الالتزام في ناحية أخرى، ورغم خلفيتها التاريخية إلا أنها ولجت إلى الثقافة من بابها الواسع، حيث نهجت نهجاً موسوعياً، فكتبت في الأدب وفي التاريخ والفكر وفي التربية. مارست الكتابة منذ ١٣٩٨هـ وظلت تزاول العطاء على مدى واحد وعشرين عاماً، وما زالت تفيض عطاءً، قدمت خلال تلك الفترة أكثر من خمسة وأربعين مؤلفاً وبحثاً، صدر بعضها في كتب مثل: (مسيرة المرأة السعودية إلى أين؟) الذي نشرته الدار السعودية للنشر ١٩٨٤م، وهو من الكتب المقررة على طالبات كلية الشريعة بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ومنها كتاب: (المرأة بين الإفراط والتفريط)، الذي صدر عام ١٩٨٤م، وكتاب: من عمق الروح وصلب الفكر، وقد نشر في ١٩٨٥م، وهو يشمل عدة بحوث ومقالات في الأدب والتاريخ والإعلام الإسلامي، وبعض قضايا الأمة الملحة. ومن الكتب المطبوعة أيضاً كتاب: (بناء الأسرة المسلمة) الذي صدر ١٩٨٥، وكتاب (دور المرأة المسلمة في وضعنا الراهن) الذي صدر عام ١٩٨٧م. ومن الكتب المطبوعة أيضاً كتاب: (إحسان عبد القدوس بين العلمانية والفرويدية) يقع في حوالي (٥٠٠) صفحة، ولها أكثر من مائتين وخمسين مقالاً تناولت فيها مختلف الموضوعات من تاريخية وأدبية واجتماعية وسياسية، وإعلامية، وتربوية وتعليمية واقتصادية، تمس قضايا على مستوى الأمة، أو على مستوى الوطن الأم. وقد نُشرت تلك المقالات في معظم الصحف والمجلات والدوريات السعودية، وبعض الصحف والمجلات العربية. وبعضها في كتب مستقلة.

لم يقتصر نشاط الأديبة سهيلة على الكتابة، بل شاركت في النشاط الاجتماعي بجهد مشكور، حيث أسهمت في تأسيس المدارس النسوية للجماعة الخيرية لتحفيظ القرآن الكريم بالمدينة المنورة، وعملت تطوعاً رئيسة لهذه المدارس لمدة ست سنوات (١٤٠٦-١٤١٢هـ) وهي عضوة نشطة في رابطة الأدب الإسلامي العالمية، وعضو اتحاد الكتَّاب العرب بالقاهرة.

وقد تناولت الأديبة سهيلة قضايا شتى يمكن أن تصنَّف في زمرتين؛ الزمرة الأولى وهي القضايا الخاصة بالأمة الإسلامية كافة.

أما الزمرة الثانية فهي القضايا الخاصة بوطن الكاتبة وقضاياه الملحة.

ولما كانت العناية في هذه الدراسة مركزة على قضايا الأمة الإسلامية التي عالجتها الكاتبة فيحسن بنا الوقوف عند إحدى هذه القضايا التي اصطلحت على تسميتها «الفكر العربي تحت مجهر التصور الإسلامي» أو «قضية الالتزام الأدبي» في الاصطلاح النقدي.

المقدمة

من القضايا الإسلامية التي شغلت الكاتبة الفاضلة وشكلت لها هماً مؤرقاً قضية: «الفكر العربي تحت مجهر التصور الإسلامي».

وقد توخت الكاتبة من خلال طرح هذه السلسلة التأليفية، التي شملت نتاجاً فكرياً لشخصيات عدة، منها ما كان يمثل تياراً فكرياً إسلامياً، ومنها ما يمثل تياراً علمانياً، هو تسليط الضوء على بعض أنواع الغزو الفكري الذي خالط عقول وأفكار الكثير من أدباء الإسلام، حتى لم يسلم من هذا التيار ممن يحسبون على الإسلام، مبينةً أن الإسلام يتعرض لأعتى الهجمات لمحاولة اقتلاعه من أفئدة وعقول أبنائه، والشواهد على ذلك أكثر من أن تحصى!! وليس من المبالغة في شيء القولُ بأن الغرب سعى سعياً حثيثاً لإيجاد طابور خامس بيننا يكون خطره على الإسلام أشد وأعتى من الأخطار الأخرى التي شهدها في تاريخه الطويل نظراً لأن هؤلاء هم أبناء الإسلام، وحملة أسمائه، والمتحدثون باسمه، ويعتبرون أنفسهم لسان حال الأمة، والبوابة الوحيدة التي ينفذون من خلالها إلى العالم؛ فهم رجال الفكر، وأساتذة الجامعات، وحملة الأقلام، ومن ثمّ فهم ضيوف الجامعات والمنتديات يحتفى بهم في الشرق والغرب، وتترجم كتبهم إلى عدة لغات.

أما بضاعتهم فحشفٌ وسوءُ كيلة!! فمعظمهم علمانيون وجوديون؛ فصلوا الدين عن الدولة، ومنهم من تعرض للقرآن والأنبياء بالنقد والشك، ونالوا من الإسلام ورجاله، ومع هذا عُدَّت كتابتهم إسلامية!! [1].

ونظراً لهذا الخطر المحدق بالامة الإسلامية وعقيدتها السمحة انطلقت فارسة الكلمة المؤمنة سهيلة زين العابدين حماد بغيرتها الإسلامية وقلمها الحر، ونظرها الثاقب تعالج هذه القضية معالجة منهجية على مستوى التنظير والتطبيق، جاعلةً من الكلمة الصادقة الأمينة رسالتها في الحياة، مهما اعترض طريقها من عقبات،

---

(١) أشارت الكاتبة إلى محاضرة ألقيت في نادي المدينة الأدبي، في ١٤٠٦/٢/١٩هـ أشاد المحاضر بفن توفيق الحكيم الذي يستلهم التراث الإسلامي في مسرحياته.

مستمرة على العطاء، بغية الوصول إلى الكيفية التي يُقضى فيها على مظاهر التغريب والإلحاد في أدبنا العربي، وتنقيته من الشوائب والأدران، تحت مجهر التصور الإسلامي.

ولعله من المفيد الاطلاع على مفهوم الالتزام الأدبي في المصطلح النقدي، فهو يعني أن يكون: «الأدب وسيلة إصلاح منبعها ضمير الكاتب وصدقه وأصالته» [١] «فالكاتب شاهد على عصره، فإلى أي مدى كانت شهادته صحيحة مشروعة؟ وأي غاية تتراءى من وراء هذه الشهادة المتجلية في تصويره؟ وفي هذا لا تنحصر صحة العمل الأدبي في تعبيره عن مذهب فكري لطبقة ما، بل إن مجال مشروعيته تشمل كل آمال العصر أو البيئة، أو الإنسانية جمعاء من وراء تصوير موقف خاص» [٢].

وقد عالجت الكاتبة هذه القضية بعد دراسة مستفيضة، تمثلت بالاستقراء الشامل لنتاج عدد كبير من الأدباء مدة زمنية ليست باليسيرة بلغت قرابة أربعة عشر عاماً، وما زالت رهن الرصد والمتابعة، ثم عرضت لنتاجهم الأدبي تحت مجهر التصور الإسلامي، متلمسةً منهجاً نقدياً موضوعياً موثقاً؛ بعيداً عن الهوى والتعصب والتحامل، كاشفةً من خلال الطرح الشامل، والتحليل العميق، والتوثيق الدقيق مظاهر الدس والافتراء، وخلط الأفكار والتناقضات، للتشكيك في الدين، وتشويه صورة الإسلام والمسلمين.

وقد اعتمدت الكاتبة في معالجة هذه القضية على محورين بارزين:

١- فهم الإسلام فهماً صحيحاً عميقاً: عقيدةً، وعبادةً، ومعاملةً، وسلوكاً، ومن ثمّ وضع نظرية معيارية لمنهج التصور الإسلامي، شكلت مصطلحاً نقدياً يقوِّم وفقه الاتجاه الفكري للإنتاج الأدبي، مع تأصيل مرجعية هذا المصطلح للكتاب والسنة، تقول الكاتبة: إن القرآن الكريم صنَّف الكلمة إلى صنفين: الكلمة الطيبة، والكلمة الخبيثة في قوله تعالى: ﴿**أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا**

(١) محمد غنيمي هلال: النقد الأدبي الحديث، (دار نهضة مصر، ١٩٩٧م)، ص٣٢٧.
(٢) المرجع السابق، ص٣٢٧.

ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴿٢٦﴾ يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ ﴿٢٧﴾ [١].

ثم تعلق الكاتبة على هذا التأصيل بقولها: إذاً فموقف الإسلام ثابت؛ فهناك مؤمنون هم أصحاب الكلمة الطيبة، وهناك ظالمون هم أصحاب الكلمة الخبيثة، ثم تؤصل لهذا المفهوم من السنة مبينةً بأن السنة النبوية قد حددت أيضاً الموقف من الكلمة، ممثلة في الشعر، حيث قال ﷺ: (**لئن يمتلئ جوف أحدكم قيحاً خير له من أن يمتلئ شعراً**) [٢] فاعتبر الرسول ﷺ من يقول شعراً ماجناً، أو يخالف المنهج الإسلامي قوله فاحشاً أسوأ من القيح [٣].

وعلى هذا كانت الكاتبة من أول المبادرات لترسيخ نظرية الأدب الإسلامي تنظيراً وتطبيقاً، منذ أن ظهر على الساحة الأدبية مصطلحاً نقدياً، وتياراً عالمياً، له خصائصه ونماذجه ورواده، ورابطة عالمية تؤلف بين أعضائه.

٢- اعتمدت الكاتبة في دراستها التقويمية على الفهم العميق، والإحاطة الشاملة بالمنطلقات العقدية والفكرية التي شكلت محصلة انتماءات الكتَّاب ونتاجهم الأدبي، سواء كانت تلك العقائد والأفكار: دينية، أو فلسفية، أو مذهبية، أو سياسية.

ومن خلال هذين المحورين اللذين شكلا رؤية الكاتبة لمنهجها النقدي انطلقت تعالج قضية الالتزام الأدبي بفرعيها: الإنتاج الأدبي، والتقويم النقدي.

أولاً: الإنتاج الأدبي:

انطلقت الكاتبة تعالج قضية الالتزام الأدبي بحماسة بالغة، متأسية بقول الرسول ﷺ: «**من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان**»[٤]، مستخدمة وسطية هذا الإنكار المعبر عن لسان حالها،

(١) سورة إبراهيم: الآيات (٢٤-٢٧).
(٢) صحيح البخاري، باب الأدب، ص/٩٣.
(٣) انظر: سهيلة زين العابدين: الأدب الإسلامي علام الاختلاف عليه، القاهرة: ١٩٩٧م.
(٤) صحيح مسلم، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، ط١، (دار الحديث، القاهرة، ١٩٩١م) ٦٩/١.

وحال الغيورين أمثالها ممن لا يملكون أدواتها التعبيرية، مدركةً لأبعاد الكلمة الصادقة البعيدة الغور في النفس الإنسانية، مبينة خطورة هذا النتاج الأدبي، ممثلاً في «فكر توفيق الحكيم» الذي وضعته تحت مجهر التصور الإسلامي، موضحةً مدى التصدع العقدي، والاضطراب الفكري الذي أصاب نتاجه الأدبي، كما أصاب عدداً من الأدباء ممن تبنوا أفكاراً لا تتفق ومبادئ الإسلام ممن حرصوا على نشر الآثار النصرانية والقومية اللا دينية، وسرت هذه المفاهيم وتلك الأفكار لا على عامة القراء فحسب؛ بل على الخاصة الذين غفلوا تحت تأثير براعة الحكيم في إدارة فن الحوار المسرحي عن تشويهه لصورة الأنبياء في مسرحيتيه: (أهل الكهف) و(سليمان الحكيم)[١].

ولم تكن الكاتبة لتأبه للتقويم النقدي لهذا النتاج الأدبي لو لم يكن خطره مسلطاً على الثوابت العقدية والخلقية للأمة، لا سيما وقد غاب النقد الفكري تماماً عن الساحة الأدبية، واقتصر على النقد الفني للأشكال الأدبية، تقول الكاتبة: «ومما يؤسف له حقاً أن جميع النقاد يحكمون على الأعمال الأدبية من الناحية الفنية البحتة، ويهملون تماماً ما يتضمنه النص الأدبي من أفكار وآراء تشكل خطورة على العقائد والأخلاق، ولهذا ظهرت في ساحة أدبنا المعاصر الوجودية والواقعية الاشتراكية، فشاع الأدب المكشوف، وانتشر تأليه العقل والذات والعلم، وظهر بيننا من ينبذ التراث، ويُعمِّق الآثار النصرانية، وتصدَّر ساحة الأدب أمثال: «توفيق الحكيم، وإحسان عبد القدوس، ونجيب محفوظ، ونزار قباني وسواهم»[٢]، معللة هذه الهجمة العلمانية بتنحية رجال الفكر الإسلامي عن الصدارة في ميدان الأدب والنقد، مع أنهم لاينقصهم موهبة الإبداع، وجودة الإنتاج.

وهذا الطرح لأبعاد المشكلة يقتضي رسم منهج للمعالجة، ومن ثمّ انطلقت الكاتبة لريادة هذا العمل الجليل الذي فتحت بابه بنقد فكر توفيق الحكيم نقداً علمياً نزيهاً، مرتكزاً على الحق والبرهان، ببيان مفهوم التصور الإسلامي للأدب، وتأصيل

(١) سهيلة زين العابدين: فكر توفيق الحكيم تحت مجهر التصور الإسلامي، (سلسلة الفكر العربي تحت مجهر التصور الإسلامي، ١٤٠٦ هـ)، ص ٣.

(٢) سهيلة زين العابدين: فكر توفيق الحكيم، ص ١٢٦ - ١٢٧.

مرجعيته، وتقويم الأدب وفق حيثياته، وهذا استدعى الكاتبة لطرح تساؤلات حول مفهومات عدة منها: حقيقة أصل الإنسان، ومناط التكليف لديه، والغاية من خلقه ووجوده، وهل هو أرقى المخلوقات؟ ثم ما هو الوحي؟ ومن الذي يوحي إليه؟ وبيان ماهية الرسل، وبيان طبيعة الفكر البشري بين الانطلاق غير المحدود الذي يفقد التوازن لتجاوزه حدود الإيمان، وبين الانطلاق المقيد بقيم الإيمان وحدوده.

وقد أجابت الكاتبة عن هذه التساؤلات وسواها، مما ينضوي في ثناياه مضمون كل إبداع أدبي يصور علاقة الكاتب بالخالق، والإنسان والكون والحياة، لا سيما ما أثاره الحكيم في مؤلفاته من أفكار شكلت منظومة نتاجه الفكري والأدبي، داعمة هذه الإجابات بالأدلة والحجج والبراهين المستمدة من الكتاب والسنة، ومصادر أخرى توثيقية، تنبئ عن ثقافة الكاتبة الموسوعية، ورسوخ أدواتها البحثية، التي تؤهلها للتصدي لتقويم هذا النتاج الفكري. ثم لخصت المؤلفة هذه السياحة الفكرية الشاملة لمفهوم التصور الإسلامي وفق المحاور الآتية:

أ- **الجانب الإنساني:** صورت فيه الكاتبة هدف القرآن من تصوير الطبيعة البشرية في الإنسان مبينة أنه خلق من خلق الله، خُلق لمعرفته وعبادته العبادة الحقة بمفهومها الخاص الذي يتعلق بالفرائض والعبادات، ومفهومها العام الذي يشمل كل عمل يعمله الإنسان في عمران الكون، وسد حاجاته، وحاجات مجتمعه تبعاً لما رسمته حدود الله، فهو خليفة الله في الأرض الذي ميزه بالعقل والإرادة، والاختيار والتمييز، وسخَّر له الطبيعة، وسائر الكائنات لخدمته، ومكَّنه من إعمال عقله لاكتشاف العلوم وتوظيفها لمنفعته وتحقيق أمانة استخلافه. وهذا يقتضي ألاَّ يغتر الإنسان بعقله، فينفصل عن خالقه! بل يحقق هذا التوازن في طبيعته البشرية التي تلائم بين العقل والقلب والروح والجسد، ولا يكون ذلك إلا باتباع المنهج القرآني[1].

(١) المرجع السابق، ص ١٢٧.

ب - **الجانب العقائدي**: وهو يختص بالتصور الإسلامي حيال الحياتين: الدنيوية والأخروية، وما يقتضي ذلك من تعميق أركان الإيمان في نفس المسلم، والشعور بعبوديته لخالقه، وأن الأنبياء هم حملة مشعل الهداية للبشرية، متميزون عن سائر البشر بالوحي والعصمة والمعجزات [١].

جـ - **الجانب الكوني**: ويتناول هذا الجانب ماهية الكون، وصلة الإنسان به، وبخالق هذا الكون؛ فالقرآن يثبت أن للكون خالقاً، والمسلم وثيق الصلة بالكون، وبعبوديته لخالقه، وهذا الكون سخره الله لمنفعة الإنسان، وتوظيف هذه المنفعة لتحقيق عبوديته لخالقه [٢].

وهكذا سلطت الكاتبة الضوء على منهج التصور الإسلامي وغايته مستهدفة تقويم الأدباء، وفق هذا المنهج، فبموجبه تتحدد مكانة أدبهم.

وبعد هذه الإحاطة الشاملة لمفهوم التصور الإسلامي الذي استغرق جزءاً كاملاً من أجزاء الدراسة، انتقلت الكاتبة نقلة منهجية أخرى لبيان المؤثرات في هذا النتاج الفكري، ومن أبرزها دور الحملة الفرنسية على مصر من عام ١٧٩٨-١٨٨٠م. وتأثيرها المباشر على الحياة الثقافية العربية والإسلامية، واتجاهاتها الجديدة، حيث تمّ الالتقاء المباشر بين الحضارتين: العربية الإسلامية والأوروبية الحديثة [٣].

ومما ساهم في تقبل هذا الامتزاج الثقافي للحضارتين أنه جاء بعد فترة الركود الثقافي والعلمي التي ظهرت إبان فترة الدولة العثمانية وما تلاها، مما أدى لظهور النفوذ الأجنبي، الذي أفرز تغييراً في المفاهيم والأخلاق لدى طائفة من المصريين الذين تأثروا بالثقافة الأوربية، لا سيما الفرنسية، تلك التي عززتها البعثات التعليمية إلى فرنسا في عهد محمد علي الذي كان يرى أن فرنسا هي منهل العلوم والفنون، ومن ثمّ قاد هؤلاء المبتعثون الحركة الثقافية العلمية في مصر، وظهر تأثيرها الواضح على الجيل التالي لهم[٤].

---

(١) المرجع السابق، ص١٢٧-١٢٨ .
(٢) سهيلة زين العابدين: فكر توفيق الحكيم، ص١٣٣ .
(٣) المرجع السابق ، ص ٢.
(٤) المرجع السابق. ص ١٣٤.

ومما ساهم في شيوع الثقافة الفرنسية ترجمة أمهات الكتب الأدبية بصفة عامة، والفرنسية بصفة خاصة، إلى جانب اقتباس نظام التعليم الفرنسي في مراحله الثلاث، وإنشاء المدارس الفرنسية التي بلغ تعدادها في عهد الخديوي إسماعيل (مائة وأربعين) مدرسة، كما بلغ عدد تلاميذها (اثنين وعشرين ألفاً ومئة وخمسة وسبعين) تلميذاً[١].

وهذا التيار التغريبي لم يقتصر على رواد الأدب فحسب، بل امتد إلى بعض من تلقى علومه في الأزهر، مثل الإمام الشيخ محمد عبده، حيث انعكس على بعض فتاواه في تعدد الزوجات، فجاءت موافقة لهذا التيار، وقد حذا حذوه تلاميذه منهم قاسم أمين في كتابه (تحرير المرأة) [٢].

ولم يقتصر التأثير الغربي على أدباء مصر بل امتد تأثيره إلى أدباء لبنان وسوريا، وكان هؤلاء حملة الثقافة الغربية، والفكر الغربي، في أقطارهم، أمثال:جرجي زيدان، وفرح أنطون، ود .صروف، ود . شميل[٣].

ثم أوضحت الكاتبة أن الحملة الفرنسية وإن فشلت عسكرياً إلا أنها استطاعت في فترة وجيزة نسبياً تحقيق غزوها الفكري برفد العقل العربي المسلم بروافد الفكر الغربي الملحد في معظمه، يعززها الاتصال المباشر بفرنسا بإرسال البعثات التعليمية، والإرساليات التبشيرية، وحركة الترجمة.

وتبعاً لهذه الوسائل تسللت المذاهب الأدبية الحديثة مثل: (الوجودية، والماركسية، والسريالية، والبرناسية، والواقعية، والبرجماتية، والرومانسية والكلاسيكية، والمثالية) [٤]. وتوغلت في أفكار معظم الأدباء حيث أصبحت الثقافة الفرنسية واحة يتفيأ ظلالها أهل الفكر والأدب وينهلون من معينها دون ارتواء!!.

---

(١) المرجع السابق، ص١٣٥.
(٢) سهيلة زين العابدين: فكر توفيق الحكيم، ص١٣٦.
(٣) المرجع السابق، ص١٣٦ .
(٤) المرجع السابق، ص ٣١٥ .

ثم عرضت الكاتبة للفن القصصي والمسرحي في الأدب العربي ورواده الأوائل، وخصائصه الفنية، مستهلة هذه الخصائص بذكر السمات الفنية في القصة القرآنية، وأثر الإسلام على القصة في الأدب العربي، ثم أثر المذاهب الأدبية على الفن القصصي بعامة.

وبهذه الوقفة المتأنية التي تناولت فيها الكاتبة العوامل المؤثرة لظهور التيار التغريبي في الإنتاج الأدبي، والرؤى الفكرية، والخصائص الفنية لهذا الإنتاج تكون قد وضعت المهاد الرئيس للدراسة التطبيقية التي استغرقت الجزء الثالث من مؤلفها، متخذةً من فكر توفيق الحكيم تحت مجهر التصور الإسلامي ميداناً لهذه الدراسة، نظراً لكون الحكيم من أكثر المبدعين للفن القصصي والمسرحي، وأكثرهم حضوراً على الساحة الأدبية، إلى جانب ريادته للمسرح النثري؛ الذي بلغت عدد مسرحياته (ثلاثاً وستين) مسرحية، شكلت أكثر من نصف إنتاجه الأدبي الذي توزع بين المسرحية والقصة والمقالة، واستغرق مساحة زمنية بلغت قرابة ربع قرن من الزمن. وقد اشتملت مسرحياته على موضوعات عدة، كان منها: الدينية، والتاريخية، والسياسية، والاجتماعية. وتوزعت بين الجد والهزل، وبين اللغة الفصحى والعامية، واللغة الثالثة التي استحدثها الحكيم في كتابته للمسرحية، إذ جعل كل شخصية تتكلم بلغتها الذاتية في حياتها الشخصية.

واستهلت الكاتبة دراستها التطبيقة بدراسة البنى الفكرية التي شكلت نتاج الحكيم الأدبي، سواء من خلال نصوصه الإبداعية، أو سيرته الذاتية أو هما معاً، تلك السيرة التي رواها الحكيم بنفسه، ورصدتها الكاتبة في عدد من مؤلفاته التي شكلت قرابة خمس إنتاجه، سواء التي تحدث فيها عن حياته بصورة مباشرة، مثل: (سجن العمر، وزهرة العمر، ويوميات نائب في الأرياف، والقصر المسحور، ومن البرج العاجي، وتحت المصباح الأخضر، وحمار الحكيم، وفن الأدب، وعدالة وفن، وأنا وحماري، ووثائق من كراديس الأدباء، وتحديات سنة (٢٠٠٠) وتوفيق الحكيم الساخر) [١].

(١) سهيلة زين العابدين، فكر توفيق الحكيم، ص٢٠٠.

أو تلك القصص التي تحدث فيها عن حياته بصورة غير مباشرة، مثل: (عودة الروح، وعصفور من الشرق، وراقصة المعبد، والرباط المقدس) [١].

إلى جانب تتبع الكاتبة لسيرته الذاتية من خلال عوامل توثيقية أخرى؛ ممثلة في بيئته وأسرته في دمنهور، ومجتمعه وعصره، وحياته في باريس، وثقافته، والشخصيات التي تركت أثرها في نفسه.

وقد أفضت محصلة هذه السيرة، والعوامل المؤثرة في تشكيلها إلى نشوء شخصية ذات خواء ديني وخلقي لغياب التربية الدينية والخلقية عن طفولته. وقد غذَّى هذا الخواء الديني عكوفه على قراءة كتب الفلاسفة، والكتَّاب الأوروبيين، إلى جانب قراءة الكتب الدينية المحرَّفة، وقراءة التراثين: الإغريقي والروماني. وكان نتاج هذه الثقافة ثماراً خبيثة بثَّها في آفاق الفكر الإسلامي، ليس فقط من خلال ما بثه من دسائس على الرسول ﷺ في مسرحيته (محمد) بل بما بثه أيضاً في كتابه (الإسلام والتعادلية) الذي نشره عام ١٩٥٥م وهو من أخطر كتبه التي تجسد فلسفته ونظرته للخالق سبحانه، والإنسان والحياة، وفق نظرة الفلاسفة الإغريق والرومان، والعلماء الماديين، أمثال: (داروين، وسارتر، وإنشتاين) وسواهم، ممن انحرفوا بعقولهم، فألّهوا العلم والعقل والإنسان [٢].

وقد رصدت الأستاذة سهيلة مواطن هذا التأثر، وعززتها برأي صديقه الفيلسوف (زكي نجيب محمود) مادحاً لهذا الكتاب قائلاً: «قرأت الكتاب، فخيل إليَّ وأنا ماضٍ بين صفحاته أنني إنما أستمع إلى فيلسوف من فلاسفة اليونان الأقدمين، يتكلم العربية، ويرتدي ثياب أوربا العصرية..» [٣].

ثم عرضت الكاتبة فقرات من تعادلية الحكيم تحت مجهر التصور الإسلامي، ولعله من المفيد إيراد فقرة من الفقرات التي عرضتها الكاتبة، تبرز رؤية الحكيم لعلاقة الإنسان بالكون، لنقف على خطورة هذا الرأي الذي طرحه من خلال تساؤلين: «هل الإنسان وحده في هذا الكون؟» «وهل الإنسان حرٌ في هذا الكون؟» [٤].

---

(١) المرجع السابق، ص - ٣٠٠.
(٢) سهيلة زين العابدين: فكر توفيق الحكيم، ص٣٢٠.
(٣) المرجع السابق ص ٣٢٢-٣٢٣ .
(٤) المرجع السابق، ص٣٢٤.

وجاءت إجابته: «إن العصر الحديث يؤمن أن الإنسان وحده لا شريك له في هذا الكون، وأنه إله هذا الوجود، وأنه حر تمام الحرية» (١).

ثم تساءل عن ذلك السبب معللاً: «إن التعادل الذي كان قائماً حتى مطلع القرن التاسع عشر بين قوة العقل، وقوة القلب، أي بين نشاط التفكير، ونشاط الإيمان قد اختل منذ ذلك الوقت بتوالي انتصارات العلم العقلي، واستمرار جمود الجانب الديني، فالعلم وليد العقل قد ضاعف قوته، وجدد وسائله، ووسع آفاقه، في حين أن الدين وليد القلب بقي محصوراً في أفقه لم يكتشف منابع جديدة في أعماق القلب الإنساني، فتعادل مع تلك العوالم الجديدة التي اكتشفها العقل البشري» (٢).

ومن الملاحظ الأخرى التي رصدتها الكاتبة لتجاوزات الحكيم الدينية تحامله على علماء الإسلام، واصفاً إياهم بالجمود والتحجر، معللة هذا الوصف: «بإيجاد هوة بين المسلمين وعلماء دينهم، فلا يرجعون إليهم، ولا يأخذون عنهم.. ليقبلوا ما يقوله لهم الحكيم وأمثاله من تلامذة الغرب والمستشرقين الذين يريدون إلغاء الشريعة، وعدم الأخذ بنصوصها» (٣).

وتوالي المؤلفة رصد التيار الفكري لتوفيق الحكيم، الذي شكل معولاً لهدم الفكر الإسلامي لا سيما في كتابه الموسوم: «تحت شمس الفكر» هذا الكتاب الذي أصدره عام ١٩٣٨م وحوى تجاوزات خطيرة شكلت افتراءات على العقلية العربية مُلغياً دور العقل في العملية الإيمانية، وقاصراً جميع الأعمال المتعلقة بالدين على القلب فحسب» (٤).

ثم يدعو رجال الدين إلى إطلاق الحرية لرجال الفكر ليقولوا ما يقولون دون قيد أو شرط، لأن ملكة العقل لا تنمو إلا بالتفكير الحر المطلق...».

وتعلق الأستاذة سهيلة على مقولة الحكيم بأنه «يدس سموماً خطيرة بين زخارف الكلام، فهو يريد إطلاق العقل في الفكر دونما ضابط يضبطه، وأن يلتزم علماء

(١) سهيلة زين العابدين: فكر توفيق الحكيم، ص٣٢٣.
(٢) المرجع السابق، ص٣٢٤.
(٣) المرجع السابق، ص٣٤٦ .
(٤) المرجع السابق، ص٣٤٩.

الإسلام الصمت أمام كل ما يقوله المفكرون من كفر وإلحاد، وبمعنى أدق يريد من علماء الدين أن يكفوا عن الدعوة والتوعية، والرد على أعداء الله ودينه بدعوى أن هذا الفكر، وذاك الإلحاد، لمن يحتلا مكاناً في القلب (منطقة الإيمان).

وتنبه الكاتبة إلى خطورة تلك الآراء، حيث نجم عنها انتشار الشيوعية في ذلك الوقت، وهذا الانتشار كانت نتيجة حتمية لإطلاق العقل دونما ضابط، وتحجيم دور علماء الدين، مما أدى بذلك إلى تقصيرهم في مكافحة هذا التيار ومقاومته[١].

ونتابع طواف الكاتبة في رحلتها مع التيار الفكري لنتاج الحكيم الأدبي وعرضه تحت مجهر التصور الإسلامي فتتأمل موقفه من معجزات الأنبياء كما طرحه في كتابه: (تحت شمس الفكر) يقول: «إن محمداً قد فهم حقيقة النبوة، ووعى معنى الحقيقة العليا، وأدرك أكبر معجزة في هذا الكون هي ألا يكون في الكون معجزات! وأن كل شيء يسير طبقاً لنظام دقيق، وإذا قيل: نظام، قيل: قانون، وإذا قيل: قانون، قيل: عقل مدبر، وهذا العقل واحدٌ أحد...» [٢]، ثم توضح الكاتبة أن موقف الحكيم من معجزات الأنبياء يتنافى مع التصور الإسلامي لمهام الأنبياء الذين ميزهم الله بالوحي والعصمة، وأيدهم بالمعجزات، للدلالة على صدقهم، وأنهم رسل الله المكلفون بإبلاغ رسالته، ولهذا جرت سنة الله في أنبيائه جميعاً أن يسوق بين أيديهم من الخوارق للتأكيد على صحة الرسالات التي بعثهم بها.

وهذه الآراء التي عرضتها الكاتبة لفكر توفيق الحكيم ليست إلا غيض من فيض مما حفلت به مؤلفاته من انحرافات لها خطورتها على العقيدة بوجه خاص، والسلوك الاجتماعي بوجه عام، ولن نستطيع أن نلم بكل ما جاء من تلك الانحرافات والتجاوزات، في هذه الدراسة المحدودة الصفحات، ولكننا نحيل القراء إلى ذلك المؤلف الثَّر الذي تناول أفكار توفيق الحكيم تحت مجهر التصور الإسلامي طرحاً ومعالجة، وبلغ أكثر من سبعمائة صحفة!.

(١) سهيلة زين العابدين، فكر توفيق الحكيم، ص٣٤٩.
(٢) المرجع السابق، ص٣٩٧ .

وكانت محصلة هذه الأفكار تثبت بأن الحكيم لم يستلهم التراث الإسلامي في نتاجه الأدبي، لكنه نهل من معين التراثين: الإغريقي والروماني، إلى جانب ارتوائه من المذاهب الأدبية والفلسفية، والثقافة الغربية بعامة، والفرنسية بخاصة.

ولدى عرض هذا النتاج الأدبي لفكر توفيق الحكيم تحت مجهر التصور الإسلامي تبين أن هذا الفكر يشوبه الإلحاد في معظمه، وهذا بدهي! فالمقدمات تفضي إلى النتائج!!.

ثانياً: التقويم النقدي:

واستكمالاً لشمولية الرؤية في الطرح والمعالجة لقضية الالتزام الأدبي رصدت الكاتبة معطيات الحركة النقدية التي واكبت هذا النتاج الأدبي، وقومته وشدت من أزره، وساعدت على شهرته وسيرورته، على اعتبار أن النقد جزء لا يتجزأ من العملية الإبداعية، الذي من وظائفه: بيان القيمة الموضوعية للأدب، وقياس مدى تأثره بالمحيط وتأثيره فيه، وكشف العوامل النفسية التي شاركت في تكوينه والعوامل الخارجية كذلك[1]. مما يلتقي هذا مع هدف الكتابة في بيان أثر القيم الموضوعية لهذا النتاج الأدبي.

ومن نماذج الآراء النقدية التي طرحتها الكاتبة رأي الدكتور محمد مندور في مسرحية أهل الكهف، تلك المسرحية التي أشارت إليها الكاتبة في دراستها التطبيقية بأن الحكيم اعتمد في كتابتها على الآداب الإغريقية وأساطيرها، يقول الناقد مندور في كتاب (المسرح): «ومع ذلك فإن هذه القصة لا تتعلق بالإسلام وتاريخه، بل هي قصة مسيحية، ولم يتحدث عنها القرآن إلا لأنه يعترف بكافة الديانات السماوية التي سبقته كاليهودية والمسيحية وبأبنائها وقديسيها، ويستشهد بأحداث تاريخها ليستخلص منها العبرة. ومن المؤكد أنه لو كانت هذه القصة مأخوذة من الإسلام وتاريخه، وكانت شخصياتها من الصحابة مثلاً، للقيت العقبات في سبيل تمثيلها، حيث لا يزال عدد كبير من الرجعيين المسلمين يعترضون على

(١) سيد قطب: النقد الأدبي أصوله ومناهجه، (الطبعة السادسة، دار الشروق، القاهرة، بيروت ١٩٩٠م) ص٧.

ظهور نبي المسلمين أو الصحابة، وأحياناً بعض الأنبياء الآخرين على خشبة المسرح، أو شاشة السينما، وذلك بينما نرى العالم المسيحي الغربي يعرض على الجماهير لا في المسرح فحسب؛ بل وفي الساحات العامة أمام الكنائس منذ العصور الوسطى حتى الآن السيد المسيح وهو حامل الصليب الخشبي الضخم فوق ظهره، أو مشدوداً على هذا الصليب، فضلاً عن كافة القديسين والحواريين والأحبار» [١].

وتعلق الكاتبة على هذه الرؤية النقدية: «هذا ما قاله محمد مندور بالحرف الواحد، فماذا ننتظر من ناقد أدبي يريد من المسلمين أن يحذوا حذوا المسيحيين ليجسدوا شخصية الرسول ﷺ، وأصحابه رضوان الله عليهم، ووصف كل من يعارض هذا بالرجعية والتخلف؟!.. هل ننتظر من ناقد كهذا أن يدقق في الروايات التي استند عليها الحكيم في مسرحياته الدينية.. وللأسف أن هذا الناقد وهو الدكتور محمد مندور يُشاد به في كتب النقد كأحد النقاد المبرزين..» [٢].

ثم تناولت الكاتبة رؤى نقدية أخرى تجمعها محصلة الإشادة بفن الحكيم الأدبي، ومسرحياته، بما لا يتفق مع الدين والقيم والأخلاق، منها رؤية الناقد عبد القادر القط الذي لم يشر إلى أهداف الحكيم في مسرحياته الدينية التي نهج فيها نهج اليهود تجاه أنبيائهم، بل أشاد بهذا المسرح، ولم يذكر سلبياته، ويكشف حقيقة أهدافه، وما يدسه من سموم في كتاباته [٣].

حتى سرت هذه العدوى إلى أصحاب الاتجاه الإسلامي، فأشارت عاتبة على أستاذ جامعي، وناقد له بحوث في الأدب الإسلامي إشادته بمسرح الحكيم، وتنصيبه إمارة المسرح العربي، وإن مسرحه يستلهم التراث الإسلامي والوطني والقومي [٤].

ومن الآراء النقدية الهامة التي عرضت لها الكاتبة رأي الدكتور نجيب الكيلاني في أدب توفيق الحكيم وذلك في دراسة مستقلة وسمت بعنوان: (مناقشة هادئة مع د. نجيب الكيلاني حول أدب نجيب محفوظ وتوفيق الحكيم) حيث تناولت الكاتبة

(١) انظر: سهيلة زين العابدين، فكر توفيق الحكيم، ص٤، ٥.
(٢) المرجع السابق، ص٤، ٥.
(٣) المرجع السابق، ص ٦.
(٤) المرجع السابق، ص ١ - ٦.

هذه الرؤية النقدية للدكتور الكيلاني مغلفة بالود والعتاب والاستغراب نظراً لما يتمتع به الكاتب من مصداقية ومكانة اعتبارية لدى أصحاب التوجه الإسلامي قائلة: «استأذن أستاذي نجيب الكيلاني في مناقشته حول ما ذكره عن أدب توفيق الحكيم، وذلك في حديثه لجريدة (المسلمون) التي صدرت في ٤/ شعبان/ ١٤١٢هـ، إذ قال عن أدب توفيق الحكيم: «أما توفيق الحكيم فيقع في مشكلة بعض الناس الذين يحكمون على الكاتب بتاريخه، وينسون أن الكاتب يتحول من مرحلة إلى أخرى، وقد تكون نهايته عكس بدايته، فالحكيم في سنواته الأخيرة غيَّر مسمى كتابه (التعادلية) وسماه (التعادلية والإسلام) وقد كتب في الأهرام عن رحلة قام بها إلى روسيا مع شيوعية اسمها (نتاشة) رافقته وظل مرافقاً لها ومناقشاً لها حتى أسلمت وسماها (عائشة) ثم يقول: (إن الأعمال الأدبية قيمتها بما تبثه فينا من آراء ووجدانيات وأفكار، وليست بمواقف كتابها أو بما في حياتهم من ملاحظات، أو بما في العمل الأدبي من ألفاظ دينية، فالتعويل على الأثر النهائي للعمل الأدبي هو المطلوب»، ثم يقول: «وفي النهاية أقول لا يصح الحكم على أديب من موقف قديم، أو موقف واحد، والخير لنا أن نكسب هؤلاء الأدباء الكبار وأمثالهم ممن يقرون بالشهادتين والإسلام، لا أن نعاديهم ونتهمهم بالكفر أو غير ذلك من الاتهامات» [١].

وتعلق الكاتبة على مقولة الدكتور الكيلاني ببيان هدفها من مناقشته؛ وهي الغاية التي دفعتها لإنشاء سلسلتها التأليفية التي امتدت سنوات ليست باليسيرة منذ عام ١٤٠٦هـ وما زالت رهن الرصد والمتابعة، وهي تنقية أدبنا العربي من شوائب الفكر العلماني الإلحادي، بغية تدارك الخطر قبل استفحاله، وهو المنطق السليم لعلاجه وعلاج أمثاله. وتوضيح أخطاء الأدباء ليس من باب العداء ولكن من باب المحبة ليرجعوا عن الخطأ قبل استفحاله، ضاربةً المثل بسكوت النقاد مثلاً عن مسمى رواية (عبث الأقدار) لنجيب محفوظ، ومدى مخالفته لنظرة الإسلام في القدر، وهي أول رواية لمحفوظ، حيث جعله هذا السكوت يتمادى في العبثية، وهكذا[٢].

---

(١) سهيلة زين العابدين، سلسلة الفكر العربي تحت مجهر التصور الإسلامي، مناقشة هادئة مع الدكتور نجيب الكيلاني حول أدب نجيب محفوظ، وتوفيق الحكيم، القاهرة/ ١٤١٧هـ، ص٢٣.

(٢) المرجع السابق، ص٢٣ .

ثم انطلقت تحاور الكيلاني في آرائه حول أسلمة مؤلفات الحكيم في أخريات أيامه، وأنه رجع عن آرائه القديمة قائلة: «أما عن تغيير توفيق الحكيم لمسمى كتابه (التعادلية) إذ سماه (الإسلام والتعادلية) فنجد هذا الكتاب تضمن بمسماه الجديد بعض المحظورات والتجاوزات، ومنها جعله إرادة الله تعادل إرادة الإنسان واعتراضه على الثواب السماوي للخير المطلق، كما جاء في قصة (طريد الفردوس) وذلك لينفي العصمة عن الأنبياء، والرسل؛ وقد صرَّح بذلك في أحاديثه الأربعة، إلى الله، أو مع الله، التي ظهرت ونشرت في جريدة الأهرام في الفترة من ٣/١ إلى ١٩٨٣/٣/٢٢م، ومما قال فيها: «أعتقد أن الأنبياء معصومون عن الفعل وليس عن النية» ولهذا نجده في مسرحية (محمد) نال من رسول الله ﷺ كما نال من سيدنا سليمان عليه السلام، في مسرحية سليمان الحكيم، ونسب إليهما ما ليس فيهما» [١].

ثم توالي الأستاذة سهيلة مناقشة د. الكيلاني حول التحول الفكري الذي طرأ على الحكيم في نهاية أيامه، مستشهدة بأحاديثه الأربعة المشار إليها آنفاً، قائلة بأنه: تجاوز كل الحدود، وافترى على الله كذباً، وادعى أن الله كلَّمه، وقال له: (قل على لساني ما شئت) وأنكر وحدانية الخالق عندما قال: «وإن الله ليس فوق القانون» وقيد إرادة الخالق بالمخلوق عند ما أجرى حواره مع الله، وجعل العلماء أنبياء العصر - مثل نجيب محفوظ - بل غالى في تقديرهم وقال: «إن الله يخشاهم» وهذا يؤكد أن فكر توفيق الحكيم لم يتغير طوال حياته [٢].

ومما يعزز رأي الكاتبة في فكر الحكيم، وأنه لم يتغير حتى في أحاديثه الأربعة التي واكبت أخريات أيامه ما وصف به الشيخ محمد متولي الشعراوي - رحمه الله - تلك الأحاديث بأنها تحوي نفس المضامين التي تضمنتها أحاديثه تلك التي تلقاها الناس في كل مكان بالرفض والنقد[٣].

ونتابع معطيات النقاش الهادئ بين الكاتبة والدكتور الكيلاني حول أسلمة أفكار الحكيم في آخر عمره، مسلطة الضوء على هذه الآراء التي لها مساس بجوهر

(١) المرجع السابق، ص٢٤.
(٢) المرجع السابق، ص، ٢٥
(٣) سهيلة زين العابدين: مناقشة هادئة مع الدكتور الكيلاني، ص٦.

العقيدة، إذ «ألغى أهمية الشهادتين في الإسلام، وقال: إن الإيمان بالله لا يحتاج إليهما، وقال بنسبية الأديان والتشريع، وتبنى محاربة الفصحى، وذلك بدعوته إلى إدخال العامية، وإلغاء الإعراب، واستخدام الحروف اللاتينية في الكتابة [١].

وتدعم الكاتبة رأيها بالحجج والبراهين بما لا يدع مجالاً للشك في أن الحكيم لم يرجع عن آرائه، بل ظلَّ ثابتاً عليها حتى آخر حياته، وهي تلك المرحلة الفكرية التي جعلها الدكتور كيلاني المرجعية الصحيحة لسلامة توجهه الإسلامي، قائلة: «ومن المقالات التي كتبها توفيق الحكيم في سنواته الأخيرة مقال أيَّد فيه السفور والاختلاط، وأعلن عن تراجعه عن معارضتهما، ونشر هذا المقال في كتابه الذي صدر قبل وفاته (في الوقت الضائع) وتصور الجنة والنار تصوراً يخالف التصور الإسلامي لهما، وذلك في حوار أجرته معه مجلة الإذاعة والتلفزيون في عددها الصادر بتاريخ ١٠/شوال/ سنة ١٤٠٧هـ، بعنوان لعبة الحياة والموت، وكان توفيق الحكيم قد كتب في كتابه (حماري قال لي) تصوراً للجنة يوافق ما صرَّح به في حواره المشار إليه، كما أنه جعل الموسيقار موزار من أهل الجنة!.

هذا، ومن مقالاته التي ضمنها كتابه (في الوقت الضائع) والذي صدر قبيل وفاته مقال يقول فيه بنبوة السيدة مريم» [٢].

وتدعم الكاتبة مناقشتها الهادئة الموضوعية لرؤيتها النقدية التي تجسد محصلة توجهات توفيق الحكيم الفكرية، والقواسم المشتركة التي تؤلف بين مراحلها القديمة والحديثة، بطرحها تحت مجهر التصور الإسلامي، قائلة: «وبعد، هذا بعض ما كتبه توفيق الحكيم في سنواته الأخيرة، وهو يؤكد ويكرر ما كتبه في سنواته الأولى.. وهكذا نجد أن توفيق الحكيم خالف التصور الإسلامي في هذه المؤلفات، وغيرها، ووقف موقفاً مضاداً تجاه الإسلام، بل دافع عن الاشتراكية والشيوعية، ومهد لهما، وكان لكتاباته أكبر الأثر في دخول الاشتراكية إلى مصر، وبعض البلاد العربية، كما مهد بمسرحية (أهل الكهف) للشيوعية فيها. إلى جانب مخالفته للنص القرآني في

(١) المرجع السابق، ص٢٥ .

(٢) سهيلة زين العابدين: مناقشة هادئة مع الدكتور الكيلاني، ص٢٥.

مسرحيات: (أهل الكهف) و(سليمان الحكيم) و(قصة شهيد) إذ قال برغبة إبليس في التوبة [١].

وتستكمل الكاتبة طرح رؤيتها النقدية حول دعوى توجهات الحكيم الإسلامية التي ختم بها حياته، وظهرت في مؤلفاته الأخيرة، حتى لا ينساق القراء دون بصيرة بالتأثر في هذه القراءات مدفوعين بمصداقية الكاتب (الكيلاني) ومكانته على الساحة الأدبية والإسلامية قائلة عن الحكيم: «وأنكر واقعية القصص القرآني، كما نجده قد مجَّد الإغريق والحضارة الإغريقية، وقال عن العرب: إنهم أمة لا ماضي لها، إلى جانب أنه جعل للفن إلهاً يسجد له ويستغفره وذلك في (راقصة المعبد) كما أساء إلى الإسلام في مسرحية (أوديب)، إذ ادعى أنه أسلم الأسطورة، ومع هذا جعل (أوديب) يفقأ عينيه لانتحار أمه وزوجه، إذ كان يريد أن تستمر علاقته الزوجية بها، بعد أن علم أنها أمه، بينما الذين كتبوا هذه الأسطورة من وثنيين ومسيحيين جعلوا (أوديب) يفقأ عينيه تكفيراً عن الإثم الذي اقترفه لزواجه من أمه، وهوعندما تزوجها لم يكن يعلم أنها أمه» [٢].

وتؤكد الكاتبة في حوارها مع الدكتور الكيلاني رؤيتها في تجاوزات الحكيم في كتاباته الأخيرة التي لا تختلف عن بداياتها بقولها: «وهناك مواقف عديدة لتوفيق الحكيم لا يتسع المجال لذكرها، وهذه المواقف السلبية ليست اثنين أو ثلاثة، ولكنها تفوق الستين موقفاً. كما نجد توفيق الحكيم ثابتاً في مواقفه تجاه الإسلام؛ فما كتبه في بداية حياته الأدبية أكده في نهايتها، والموقف الوحيد الذي لم يثبت عليه، وتراجع عنه هو موقفه من السفور والاختلاط، إذ عارضهما في بداية حياته، وأقرهما في أواخرها» [٣].

ثم تنهي نقاشها الهادئ بقولها: «إن نجيب محفوظ، وتوفيق الحكيم لهما من السلبيات أكثر من الإيجابيات، وأنهما لم يظلما في تقديرهما ونقدهما من المنظور الإسلامي» [٤].

---

(١) المرجع السابق، ص٢٥.
(٢) سهيلة زين العابدين: مناقشة هادئة مع د. الكيلاني، ص٢٦.
(٣) المرجع السابق، ص٢٦ .
(٤) المرجع السابق، ص٢٦.

وأرى في خاتمة الحديث عن قضية الالتزام الأدبي التي عالجتها الكاتبة في سلسلتها النقدية: «الفكر العربي تحت مجهر التصور الإسلامي» الإشادة بجهد الكاتبة الذي يستحق الإعجاب والتقدير، ليس فقط لهذه الدراسة المتعمقة للنتاج الأدبي منذ الحملة الفرنسية حتى وقتنا الراهن، بل للموضوعية والصبر الدؤوب الذي تحل به الباحثة في دراسة هذا النتاج الأدبي وتقويمه، متصدية لكبار الكتاب الذين لم يبادر أحد من الجنسين إلى التصدي لهم، ودحض افتراءاتهم، حتى من أولئك النقاد أصحاب التوجه الإسلامي؛ وإن كنا لم نعدم أحياناً بعض الإشارات الناقدة لهذا الإنتاج، إلا أن هذا يُعدّ من قبيل الاستثناء الذي يؤكد القاعدة!.

ومن هنا نستطيع القول بثقة تامة بأن كاتبتنا الفاضلة سهيلة زين العابدين حماد تتبوأ مركز الريادة لهذا الاتجاه النقدي الذي ارتكز على نقد معطيات التيار الفكري للإنتاج الأدبي طيلة تلك الفترة التي امتدت مدة ليست باليسيرة حتى شكلت اتجاهاً نقدياً، بل منهجاً من مناهج النقد التي عرفت على الساحة الأدبية، مثل (المنهج الفني، والتاريخي، والاجتماعي، والنفسي، والتكاملي) [(١)]. وهو ما يمكن أن نطلق عليه (المنهج الإسلامي) ومع أن الكاتبة قد استخدمت منهجين آخرين في مؤلفها النقدي، كالمنهج التاريخي والاجتماعي، إلا أن هذين المنهجين قد انضويا في ثنايا المنهج الإسلامي؛ هذا المنهج الذي عني أيضاً بتقويم العمل الأدبي بإبراز العوامل المؤثرة فيه، سواء كانت عقدية، أو اجتماعية، أو تاريخية، وهو على هذا يعدُّ من المناهج المعتد بها حديثاً في المجال النقدي. يقول د. عبد المنعم إسماعيل: «فقد صار المنهج الأكثر شيوعاً في الدراسات الأدبية يعنى بالأسباب التي تضافرت لإخراج العمل الأدبي إلى حيّز الوجود، وهو بالضرورة أسباب خارجية؛ منها ما يتعلق بالأديب (صانع العمل الأدبي) ومنها ما يتعلق بالبيئة، ومنها ما يتعلق بالدوافع الموجهة للأدب من تراثه الماضي، أو الحركة المكتسبة من ثقافة المجتمع وتاريخه، وهذه المناهج لا تطبق فقط على الأدب في العصور التاريخية الماضية، بل كذلك على الأدب المعاصر»[(٢)].

(١) انظر: سيد قطب: النقد الأدبي أصوله ومناهجه، ص١١٤، وما بعدها.

(٢) د. عبد المنعم إسماعيل: نظرية الأدب ومناهج البحث الأدبي، (الناشر العربي، القاهرة، ١٩٧٩م)، ص١١٧.

ومن الركائز النقدية التي التزمتها الأستاذة سهيلة في دراستها إضاءة النص للقارئ، وكشف ملابساته وخفاياه، ومن هذه الأمور التي أضاءتها أثر الحملة الفرنسية على مصر، وحجم تأثيرها الثقافي والاجتماعي؛ إذ كانت البوابة الواسعة للمذاهب الإلحادية في بيئاتنا العربية الإسلامية، وهي على هذا لم تكن حملة تنويرية، أو علامة مضيئة لثقافتنا المعاصرة، كما يعدها كثير من الباحثين والدارسين، ومؤرخي الأدب، حيث مهدت السبيل لانتشار مذهب (الفن للفن) وأعفت الأدباء من تبعات ومسؤولية ما يكتبون؛ فالفنان لا يقوِّم إنتاجه الأدبي وفق المضمون، بل وفق تقنيات فنية تلتزم بالشكل الأدبي، وخصائصه الفنية، ومن ثمَّ ظهرت التجاوزات في شتى المجالات، سواء في نظرة الكاتب للذات الإلهية، أو في عصمة ومعجزات الأنبياء، أو في المعتقدات الأخرى، فضلاً عن الانحرافات في القيم الخلقية والسلوكية التي تهدم المجتمع من داخله، كالسفور، والتبرج، والاختلاط، وشرب الخمر، ولعب الميسر، والرقص المختلط، إلخ. لا سيما وأن أكثر هذا النتاج الأدبي قد تحقق له الذيوع والانتشار، من خلال تجسيده على شاشة السينما، أو تشخيصه على المسرح، فأصبحت هذه المظاهر نموذجاً يحتذى. كما أصبحت تلك التجاوزات قيماً حضارية. يستهزأ بكل من يستنكرها أو يقلل من قيمتها، بل وينعت بالجمود والتخلف!.

ومن القيم المنهجية التي توفرت في الدراسة التزام الكاتبة بمنهج محكم منذ البداية، متخذة المعيار الدقيق الذي يلائم طبيعة هذه الدراسة التقويمية، وهو (النقدي الحكمي) الذي لا يكتفي بإصدار الحكم على العمل الأدبي، بل يطرح المسوغات والحيثيات لهذا الحكم بالجودة أو الرداءة [١]. وهذا المنهج أفضى لاعتماد الكاتبة على المنطق في محاكمة القضايا، مع عنايتها بصدق الأدلة، وصحة المقدمات التي تفضي إلى صحة النتائج. تلك النتائج التي ارتكزت على مرجعية ثابتة ركيزتها: الكتاب والسنة، والتراث الإسلامي، ومصادر توثيقية أخرى.

كما أن الكاتبة قد أرست قاعدة تنظيرية تطبيقية تعد منطلقاً لتقنيات نقدية جديدة معيارها التوفيق بين الاتباع والإبداع[٢]. هذا فضلاً عن أن الجانب التطبيقي

(١) عز الدين إسماعيل: الأدب وفنونه، (الطبعة الخامسة، دار الفكر العربي، ١٩٧٣م) ص١٠٨.
(٢) المقصود بالاتباع والإبداع: الالتزام بالتصور الإسلامي في كل إبداع أدبي.

للدراسة قد تناول أعمالاً تتسم بالنضج الفني، مع التعدد والتنوع، وإن كانت المؤلفة لم تعرض للجانب الفني لهذه المؤلفات نظراً لأن منهجها النقدي يرتكز على تقويم التيار الفكري للإنتاج الأدبي، الذي له المساس المباشر على العقيدة والأخلاق، إلى جانب أن الجانب الفني لهذه المؤلفات قد قتل بحثاً ودراسة على مدى سنوات عدة.

ومن ناحية أخرى اتسمت هذه الدراسة بالسخاء في الجانب النظري والتطبيقي، إذ بلغت الدراسة النظرية حوالي مائتي صفحة، والجانب التطبيقي قرابة ثلاثمائة وثلاث وثلاثين صفحة، مما أدى هذا الاستغراق إلى الوقوع في التكرار الذي قد يكون له بعض مسوغاته، وأبرزها تسليط الضوء على التيار التغريبي في أدبنا العربي، سعياً لتنقيته من الشوائب.

كما اتسمت شخصية المؤلفة بالموضوعية، والبراعة في إدارة الحوار، والقدرة على الإقناع، بلغة تقدية علمية معاصرة.

آراء حول إنتاجها النقدي:

كان لهذا الرسوخ التأليفي والنقدي للكاتبة ذات النظرة الثاقبة، والقلم المؤمن استقطاب الثناء من أقطاب الفكر والأدب الذين أشادوا بجهدها المتميز، بدءاً من صدور مؤلفها الأول لسلسلتها النقدية: (الفكر العربي تحت مجهر التصور الإسلامي) مستهلاً بفكر توفيق الحكيم، هذا المؤلف الذي أشاد به النقاد على صفحات الجرائد والمجلات، والملحقات الأدبية، وفي الإذاعة المرئية، إذ أحدث ضجة إعلامية، وحقق حضوراً على الساحة الأدبية، وممن أشاد بريادتها لهذا العمل الجليل، علاَّمة العصر الشيخ علي الطنطاوي، وعلامة الجزيرة الشيخ حمد الجاسر، والأديب الناقد الشيخ أحمد عبد الغفور عطار، والمفكر الإسلامي الشيخ محمد قطب، وسواهم.

ولن يتسع المجال لذكر الثناءات العطرة التي نثرت على إنتاجها النقدي؛ بل سنذكر المؤلفات التي تضمنت هذا الإنتاج، وجاءت على النحو التالي:

١- فكر توفيق الحكيم تحت مجهر التصور الإسلامي.

٢- إحسان عبد القدوس بين العلمانية والفرويدية.

٣- التأثير الغربي في فكر طه حسين.

٤- مناقشة هادئة مع الدكتور نجيب الكيلاني حول أدب نجيب محفوظ، وتوفيق الحكيم.

٥- فقر فكر الدكتور يوسف إدريس.

٦- أدونيس بين الإلحاد والإباحية.

٧- الدكتورة نوال السعداوي بين الماركسية والفرويدية.

٨- المذاهب الأدبية الغربية الحديثة وأثرها على الفكر العربي.

٩- التيار الإسلامي في شعر عبد الرحمن العشماوي.

١٠- موقف الأستاذ أحمد عبد الغفور عطار من الشيوعية والصهيونية.

١١- قراءة في كتاب المرأة واللغة للدكتور عبد الله الغذامي.

وهذه السلسلة التأليفية للكاتبة شكلت منظومة لقضية مهمة من قضايا أمتنا المعاصرة، وهي قضية الالتزام الأدبي، طرحاً ومعالجة لإدراك الكاتبة مسؤولية الكلمة وأثرها في الفرد المسلم، مهتدية بقوله تعالى: ﴿**وَاتَّقُوا فِتْنَةً لاَّ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً**..﴾[1]، وبحديث الرسول ﷺ في موضوع تأثر الأمة بأجمعها بما يصدر عن بعض أفرادها، مما يستدعي وضع حد لحرية الأفراد، ووجوب التناصح، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وردع كل من يحاول المساس بعقيدة الأمة، وذلك في قوله ﷺ: «**مثل القائم في حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة، فصار بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها، فكان الذين في أسفلها إذا استقوا من الماء مرُّوا على من فوقهم، فقالوا: لو أنَّا خرقنا في نصيبنا خرقاً ولم نؤذ من فوقنا، فإن تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعاً، وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعاً**»[2].

---

(١) سورة الأنفال، الآية ٢٥.

(٢) النووي: رياض الصالحين، تحقيق: محيي الدين الجراح، مناهل العرفان، (بيروت، د.ت، ص١٢٦)، باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

ووجه الشبه بين متداركي السفينة من الغرق وجهد الكاتبة التأليفي هو الحفاظ على كيان المجتمع من الهلاك، وذلك بالحفاظ على ثوابته، وهذا المنهج هو الذي كتب له البقاء والخلود لقوله تعالى: ﴿.. **فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ ..** ﴿١٧﴾﴾[1].

أجل... فالغثاء سيذهب جفاء، وأما ما ينفع الناس من الكلم الطيب وغيره فيمكث في الأرض، والشواهد على ذلك كثيرة، ولعل أقربها شاهداً ما ذكرته صحيفة السياسة الكويتية بتاريخ ١٥/ فبراير ١٩٩٩م في تقريرها عن معرض الكتاب الدولي تحت عنوان: (الناشرون العرب مستاؤون) قالت: «حافظت الكتب الدينية ولا سيما كتب الداعية الراحل محمد متولي الشعراوي على موقع الصدارة في مبيعات معرض القاهرة الدولي للكتاب، تلتها كتب التراث، فالكتب المرجعية، والكتب والأسطوانات العلمية.. واستمر المعرض أسبوعين، زاره خلالها خمسة ملايين زائر. وما عدا ذلك استمرت مبيعات الكتب الأدبية على تواضعها، فلم تجاوز (٣٠٠) نسخة» [2].

ووفقاً لهذه الحقيقة الثابتة، ونعني بها وعد الله سبحانه بالبقاء والاستمرار لما ينفع الناس عنيت الكاتبة بتقويم التيار الفكري للأدب إبداعاً ونقداً، وسيرهما معاً وفق منظور التصور الإسلامي، لتسير دفة الحياة بمنهج الله.

(١) سورة الرعد، الآية ١٧.

(٢) عن مجلة المجتمع، (العدد ١٣٤٢، ١٩٩٩م) ص - ١٢.

ثبت المصادر والمراجع

- القرآن الكريم.
- إسماعيل، عبد المنعم: «نظرية الأدب ومناهج البحث الأدبي»، الناشر العربي، القاهرة، ١٩٧٩م.
- إسماعيل، عز الدين: «الأدب وفنونه» الطبعة الخامسة، دار الفكر العربي، ١٩٧٣م.
- البخاري، الإمام محمد بن إسماعيل (ت ٢٥٦هـ) «صحيح البخاري» دار الفكر، بيروت، ١٩٨١م.
- حماد، سهيلة زين العابدين: «الأدب الإسلامي علام الاختلاف عليه» القاهرة، ١٩٩٧م (غير مطبوع). «فكر توفيق الحكيم تحت مجهر التصور الإسلامي» سلسلة الفكر العربي تحت مجهر التصور الإسلامي (١) ١٤٠٦هـ (غير مطبوع)، «مناقشة هادئة مع الدكتور نجيب الكيلاني حول أدب نجيب محفوظ وتوفيق الحكيم». «سلسلة الفكر العربي تحت مجهر التصور الإسلامي (٣) القاهرة، ١٤١٧هـ (غير مطبوع).
- قطب، سيد: «النقد الأدبي أصوله ومناهجه» الطبعة السادسة، دار الشروق، القاهرة، بيروت، ١٩٩٠م.
- مسلم، الإمام مسلم بن الحجاج (ت ٢٦١هـ): «صحيح مسلم» تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار الحديث، القاهرة ١٩٩١م.
- النووي. الإمام محيي الدين بن يحيى (ت ٦٧٦هـ) «رياض الصالحين» تحقيق: محيي الدين الجراح، مناهل العرفان، بيروت، د.ت.
- هلال، محمد غنيمي: «النقد الأدبي الحديث»، دار نهضة مصر، القاهرة، ١٩٧٧.
- الدوريات: مجلة المجتمع، العدد ١٣٤٢، الكويت ١٩٩٩م.